رواية

أتمّ الله الأمر

مهما طال الظلام ... ستشرق شمس الإسلام

قصي مدهش

TKWEEN 2021

في هذه الرواية ستتعرف على من تجشّم الصعاب ليُبلّغنا الدين الحنيف بحذافيره.!

(الرواية تتناسب مع مختلف الشرائح والأعمار).

صدر للمؤلف :كتاب
القمة تهتف .. فهل من مجيب ؟!

qiosm234

تكوين
الطبعة الأولى
1443هـ - 2021م
tkweenbookl
tkweenonline.com.sa

أتمّ الله الأمر

جميع الحقوق محفوظة

تكوين
COMBINATION

شركة تكوين للطباعة والنشر والتوزيع

جدة ـ حي مشرفة شارع التضامن العربي

ايميل: info@tkweenonlin.com.sa

0 0 9 6 6 5 5 9 7 6 6 0 4 1

أتمَّ اللّه الأمر

{إن الله بالغٌ أمره}

قصي مدهش

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

نسخة مهداة إلى:

.....

.....

.....

.....

.....

.....

بسم الله الرحمن الرحيم

شدّ على إزاره وهو صاعد بنعله المخصوفة إلى جبل الصفا، ذلك الجبل الأشم الأجرد ترابي اللون، ثم اتخذ من قمته مكان يقف به ملقياً بنظره للأسفل حيث يذهب الناس ويجيئوا، قبل أن يُنادي بصوتٍ جهوري عالي

- واصباحاه، واصباحاه!

سمع الناس الصوت، التفت بعضهم لبعض، ثم تبادلوا إيماءات التعجب كما يتبادلون التحية فيما بينهم، توجه الناس إلى مصدر الصوت الذي ينادي، فنظروا إلى الجبل والسماء زرقاء من فوقه ثم أطرقوا بأعينهم للأسفل عندما ألهبتهم أشعة الشمس الساطعة التي كست بخيوطها الذهبية المحيط كاملاً، تيقنوا أن الذي ينادي من فوق الجبل هو محمد بن عبد الله الصادق الأمين ذو الوجه الصبوح من شدة حسنه وجماله تخاله قطعة من القمر معتدل القامة ليس بالطويل وليس بالقصير شديد سواد الشعر تنبعث منه نفحات الطيب الزكية وقد بلغ العقد الرابع من عمره.

جال بنظره حين احتشد الناس حوله وقد تفصدت جبهته البيضاء الناصعة عرقاً من حرارة الشمس التي سلطت كامل قواها على قمة الجبل فهو أقرب شيء لها من الأرض، قائلاً:

- يا معشر قريش؛ لو أخبرتكم بأن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟

هتف الجميع بصوت واحد بعدما تقاسموا النظرات

- نعم، ما عهدنا عليك كذباً قط، ما عهدناك إلا صادقاً

انشرح صدره وتهللت اساريره بما سمع ثم أردف

- إني رسول الله إليكم، ونذيركم بين يدي عذاب شديد فأطيعوا الله ولا تكفروا

ذُهل القوم من كلامه الغريب، وبدت على وجوههم علامات الحيرة والاضطراب، الذي لم يدم طويلاً، فلم يشعروا إلا بصراخ غليظ قادم من الخلف قطع دهشتهم، وهو صوت عمه عبد العزى بن عبد المطلب المعروف

بـأبو لـهـب سـيد مـن سـادات قـريش فـاقع البيـاض شـديد الحمرة أحول العينين حاد الطباع، يصيح مرددا

- تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!

قـال كلماتـه السـاقطة ثـم انصـرف، وانصـرف القـوم علـى إثره، تاركين الصادق الأمين لأشعة الشمس الحارقة.

هـبط مـن الجبـل حاسـر الـرأس منكسـر الفـؤاد، مصـافحا بقدمه الطاهرة رمضاء مكة الساخنة عائداً إلى داره يبث همومـه إلـى الصـدر الحـاني واليد الدافئـة زوجتـه ومـلاذه خديجة بنت خويلد فهي أول من آمن بـه وبرسالته وهـي امرأة ميسورة الحال وافرة المال راجحة العقل من أفضل نساء العرب نسباً وحسباً وكانت تكبره في العمر بخمسة عشر عاماً.

فضفض لها عن خلجات نفسه وما غرزه عمه أبو لهب فـي صـدره مـن سـهام الخيبـة أمـام المـلأ، فقد كـان يمنـي الـنفس بمعاضـدته ومؤازرتـه لأنـه مـن عشـيرته الاقـربين،

انصتت له بأذان صاغيه وعينين دافئتين ثم مسحت على شعره الأجعد بصفحة يدها الناعمة، وراحت تصبره بكلماتها الهادئة

- اصبر وسينصرك الله، فإنك حميد السجايا دمث الخصال..

انجلى حزنه بعد هذه الكلمات الملهمة، وقطع على نفسه عهداً لا رجعة ولا هوادة فيه ولو كلفه الأمر خسران أحب الناس إلى قلبه من عشيرته وقرابته، وذلك في سبيل نشر الرسالة التي أمره بها الله عز وجل عن طريق الوحي جبريل عليه السلام ذلك الملَك المنوط بتعليم الصادق الأمين فهو مخلوق عظيم خلقه الله من النور، أتاه عندما كان معتكفا بغار حراء وهو المكان الذي كان يختلي فيه الصادق الأمين بنفسه ويختفي عن الأنظار، فبلّغه الرسالة وأخبره بأن يصدع بها حتى تصل لسائر الناس دون استثناء.

أيقن الصادق الأمين أن الأمر ليس سهلا ولا يسيرا بل من أشق المشاق وأصعب الصعاب إقناع المشركين بشنيع فعلهم الباطل، وأن الدين لله وحده لا شريك ولا ند له فهو الواحد الأحد وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله رحمة ورأفة بالعالمين يرغبهم بأوامره ويزهدهم في نواهيه، فهو البشير والنذير والحجة عليهم.

مع صباح اليوم التالي وقد بدت الشمس في كامل زينتها تسطع بسنا شعاعها الدافئ على بطحاء مكة القاحلة، شاع وذاع خبر الصادق الأمين وما جاء به، حينها اجتمع سادات ورجال قريش في دار الندوة وهي مقرهم الذي يتشاورون فيه ويناقشون ما يعرض عليهم من مصالح مشتركة، لينظروا نبأ محمد الذي ذم آلهتهم وعاب دينهم وسفّه أحلامهم وجعل آلهتهم إلاه واحد.

جلس القوم عن يمين ويسار الدار تاركين الصدر لأبو لهب وأبو جهل وهو صنديد من صناديد قريش ذميم الخلق شرس العريكة أسمه عمرو بن هشام، لمكانتهما

ولأنهما أول من جاهر بعداوة محمد وتكذيب دعوته.

ترأس الجلسة أبى جهل، وبدأ بالحديث وكان أبو لهب يؤيده بكل كلمة يقولها فحينا يهز رأسه إجابا وحينا يضيف ويستدرك عليه مكراً وخبثا من عند نفسه الكريهة التي تحمل في طياتها جبال من الضغينة والحقد الدفين.

دار الحوار، تعالت ا لأصوات شيئاً فشيئاً، كثر اللغط، بدأ الكل يدلي بدلوه، نهض صخر بن حرب المعروف بأبو سفيان ذلك الزعيم والسيد المطاع في قومه ذو الأنفة والخيلاء والثراء الفاحش الذي يكسبه من تجارته في رحلتي الشتاء والصيف، تنحنح بحنجرته ليقطع شريان الفوضى ثم أخذ بمجامع ثوبه شامخا بصدره منتصبا بهامته مستطرداً

- لست أخاف عليكم من محمد...

قاطعه أبو لهب بحماقة لا مثيل لها، وهو يرمقه بنظرات قاتلة

- وهل هناك أعظم خطر علينا وعلى نفوذنا ومصالحنا وأموالنا ومكانتنا بين العرب من محمد؟!

حدجه أبو سفيان بنفس نظراته وهو يجيبه

- نعم هناك ما هو أعظم خطر؛ بل يحدق بنا من كل جانب، وهم العبيد الذين بدأوا يقتربون من محمد ويستمعوا لكلامه، وإني لأخشى أن يسحرهم بعذوبة بيانه وفصاحة لسانه؛ فيتبعوه

وثب أبى جهل وشرار الغضب يتطاير من عيناه التي احمرت كحمم البركان واضعا يده على كتف أبو سفيان ليجلس ثم أردف وهو يزفر

- واللات والعزة؛ لأتبعنه القذة بالقذة وأقعدن له كل مرصد؛ إنه مذمم ليس محمد قهقهه

أنهى حديثه بضحكات مصطنعة، فبادله القوم الضحكات ملئ أشداقهم حتى بدت أنيابهم المفترسة.

انصرف القوم بعد أن قرروا بالإجماع؛ وأد الدعوة المحمدية في مهدها قبل أن تنتشر وتسير بها الركبان.

خلت الدار بعد ما كانت تضج بالصخب والضوضاء والدهماء والغوغاء.

مالت الشمس للغروب مودعتا جبال مكة الشاهقة، تاركتاً لليل هدوءه وسكينته ولفحة هواءه التي يتخللها شيء من رائحة النسيم العطرة.

مع بداية يوم جديد بدأ الصادق الأمين ما أُمر به وأخذ يصدع بالدعوة إلى الله وعبادته وحده، وترك عبادة ما سواه من الاصنام والازلام والاوثان، كل من مر بطريقه وأبصرته عيناه من غني وفقير، سيد وعبد، رفيع ووضيع..

بينما هو على حاله يدعو الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، إذ بعمه أبو لهب يسير خلفه أينما ذهب، لم يكتف بذلك فراح يصيح بأم صوته زاجرا وناهيا كل من يقترب من ابن أخيه

- يا قوم هذا محمد؛ ابن أخي أنا عمه وأعلم الناس به إنه مجنون فلا تستمعوا له...

وقف الصادق الأمين عن السير، استدار بجسده متناسق الأعضاء، نظر إلى عمه نظرة أسف وعتاب دون أن ينبس ببنت شفه، فعيناه الدامعتان تولت المهمة على أكمل وجه، ادار أبو لهب ظهره غير مكترث، كفكف دموعه بطرف كمه وعلامات الأسى وضعت بصمتها على محياه الفاتن.

عاد الصادقِ الأمين إلى داره فكان أول من استقبله زوجته التي تقاسمه أوجاعه وآلامه، حدقته بنظرة حزينة مواسية حين رأته في حالة يرثى لها، ظل صامتا لوقت طويل، وهي تختلس النظرات نحوه ونياط قلبها يتقطع شفقة عليه، خرج متوجها للكعبة دون أن ينطق بحرف واحد.

تربع في جلسته مستقبلا الكعبة وهي المكان المقدس الذي بناه نبي الله إبراهيم بمعاونة ابنه إسماعيل عليهما السلام، راح يسترجع مشهد عمه الوقح وجرأته وصدوده وإعراضه عن الحق، مما زاده يقيناً على يقين بأنه على

الطريق المستقيم السوي، تذكر العهد الذي حمله على عاتقه آنفا.

ازداد همة وعزيمة وإصرار أكثر من ذي قبل، ظل ساهر الجفنين يسأل ربه العون والمعونة والسداد، ينتظر الفجر بفارغ الصبر لكي يباشر مهمته العظيمة وينشر رسالة ربه الكريمة.

أفل القمر وبزغت الشمس مداعبتا بضوئها الخلاب كبد السماء؛ انطلق الصادق الأمين بنشاط متجدد وحماس متوقد يدعو ويدعو وراح الناس يجتمعون حوله شيئا فشيئا يستمعون لكلامه، حتى أحاطوه من كل جانب كإحاطة السوار بالمعصم.

لفت التّجمهر أنظار قريش وهي قبيلة وعشيرة الصادق الأمين، فهم رهط منهم يستطلعون ما سبب التجمع والجلبة الصاخبة، وقف الرهط على مقربة وذهبوا يحملقون في الناس فوجدوا أغلبيتهم من العبيد والرقيق والمستضعفين، حينها زحموهم.. دفعوهم.. دلفوا وسط

الحلقة الدائرية، إذ بالصادق الأمين ماثلاً أمامهم كالطود العظيم يردد «أنا رسول الله إليكم، آمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا، فلست أُغني عنكم من الله شيئاً...»

أخذ الرهط لحظات من الصمت ينظرون ويسمعون وقد اعترتهم قشعريرة دبت دبيب النمل في ثنايا أبدانهم النجسة، ثم بادر أحدهم وهو يلوح بصفحة يده في الهواء متوعداً

- هو أنت إذا يا محمد!!

انصرف غاضبا عائدا إلى قومه، يعقبه بقية الرهط الذين ذهبوا معه كأنهم قطيع من الغنم الهزيلة تمشي خلف الراعي

- لقد عدت بغير الوجه الذي ذهبت به

قالها أبو لهب: وهو يعصب عمامته المزينة بالألوان المختلفة فوق رأسه

- نعم يا عبد العزى؛ رأيت وسمعت ما يسوئكم

حملق القوم وكادت تخرج أعينهم من موضعها، ثم باغته أبو لهب بصوت مرتفع يدوي دوي المدافع

- وما ذاك؟ ثكلتك أمك..

- تكلّم..

صرخ بها أحدهم بعد أن فقد أعصابه

أجابهم متنهدا وهو يتهيأ للجلوس

- محمد يحرض القوم وينفّرهم عن دين آبائنا وأجدادنا...

وثب أبو لهب من مكانه كالثور الهائج يوزّع نظراته السامه فيمن حوله، مرددا وهو يضرب كفا بكف

- أتسمعون يا قوم؟ محمد.. محمد.. سأمت هذا الاسم ولم أعد أُطيق سماعه، تطاول هذا الأفاك الأثيم وتجاوز الحدود

نهض أبى جهل وربت على كتف صديقه الحميم –عفوا أقصد الذميم ـ وهو يقول بصوت حيواني يصدر من حنجرته التي تفوح برائحة مقززه أشبه ما تكون بالطعام العفن

- هدءً من روعك، سأذهب لمذمم وألقنه درسا لن ينساه ما دام حياً

هدأَ أبو لهب قليلا وخفف من حدته، حين رأى صديقه ينطلق مشمرا عن ساعديه وساقيه يمشي مسرعا نحو الصادق الأمين.

وقف أمامه وجها لوجه ثم أمسك بمجامع ثيابه غير مبالي بأحد، وراح يجذبه إلى صدره ذهابا وإيابا بكل ما أوتي من قوة، وهو يجلجل بحنجرته الحيوانية ذات الرائحة الكريهة

- ألم ننهاك عن ذم آلهتنا أيها الصابئ عن ملة ابائك واجدادك؟؟

دفعه للخلف بشدة مبالغة فيها ثم أضاف

- وما عبدت قريش إن لم تنته لأقتلنك شر قتله..

وقبل أن يتركه ويعود أدراجه مختالا فخورا؛ بصق عليه بصقتا نخامية قذرة جدا استوطنت ظهر خده الأيمن

تسمر الصادق الأمين مكانه وهو يمسح آثر البصقة القذرة عن خده البارز وعيناه الدعجاوان مغرورقتان بالدموع، ولسان حاله يكرر: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» انفض الجمع من حوله وهم سكوت فمن ذا الذي يجرأ على مجابهة وجهاء مكة وأعيانها.

تثاءب المساء لتعلن الشمس استيقاظها بشعاعها الوهاج

- يا قوم لقد استنفذنا جميع الطرق والوسائل في كبح جماح دعوة محمد، ولم نحرك ساكنا رغم العداء والبغضاء والشحناء التي قابلناه بها فكل ما قابلناه بسيئة قابلنا بالحسنة وكلما اخطئنا في حقه سامحنا وصفح عنا بل واحسن إلينا، عجزت النساء أن يلدن رجلاً في حسن أخلاقه وكمال صفاته، إني لأحسده على ما هو فيه من شهامة ومروءة لا أبى له.

قال أبو سفيان كلماته على مسمع ومرأى علية القوم من قريش ثم صمت غير قليل وهو يقلب نظره في ذهول، ثم تابع حديثه بنبرة حازمة عاقلة

- أرى أن نذهب له، نفاوضه ونعرض عليه ما يرضيه شريطة أن يترك دعوته التي زاحمنا بها أناء الليل وأطراف النهار

- وأن يدعنا وشأننا؛ نعبد ما نشاء

أضاف أحد الجالسين

وافق القوم أبو سفيان لما عرف عنه من رجاحة عقل وسداد رأي، فمضوا قدما نحو الصادق الأمين يعرضون عليه العروض ويساومونه من أجل مصالحهم الدنيوية التي أفسدها عليهم ـ كما يزعمون ـ .

اجتمع القوم حول الصادق الأمين مطوقينه من كل جانب، بدى على وجوههم قسمات من الصفاء والود المفتعل وأما نبرة أصواتهم فقد مالت للهدوء غير المعهود، مما جعل الصادق الأمين يغرق في موج أفكاره المتلاطمة متمتما في نفسه «ما بال القوم؟ جاءوا مقبلين مسالمين على غير عادتهم؛ أرجو أن الله هداهم للإيمان وأتوني ليعلنوا إسلامهم».

قطع حبل أفكاره صوت أبو سفيان قائلا:

- يا محمد اجتمعت أشراف قريش وجاءت تعرض عليك؛ ذروة أموالها وسلطانها ونساءها، خذ ما شئت منها..

صمت لحظة ابتلع فيها ريقه ثم تابع

- وذلك مقابل أن تدع دعوتك وترجع لدين آباءك واجدادك الذين سبقوك..

نزلت كلمات أبو سفيان على مسامع الصادق الأمين كأنها سوط من عذاب، طأطأ رأسه للأسفل وهزه نفيا وتأسفا دون أن تنبس شفتاه بكلمة، ثم غادر المكان حاملا هموم الأرض والسماء على كاهله.

كان يتوقع أن اجتماعهم على خير وأنهم جاءوا يريدون الإسلام؛ ولكنه صدم وتفاجئ بما عرضوه مقابل أن يدع ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

عاد القوم إلى ناديهم –دار الندوة محل اجتماعهم ـ محتارون في أمرهم يخالجون أنفسهم «هل صمته يعني أنه موافق؟ لما جرت عليه العادة أن الصمت علامة

الرضا؛ ولكن إيماءات وجهه المنكمشة وجسده المنقبض لا يدل على الرضا..»

ثارت ثائرتهم وزاد اضطرابهم وشكهم وهم يحرون جوابا أو دليلا قاطعا يلتمسون من خلاله موافقة الصادق الأمين لعروضهم أو رفضه، فقد غادر ولم يشبع رغبتهم وتركهم كالنار في الهشيم تأكل بعضها بعضا دون أن تجد ما يطفئها.

هموا بالمغادرة لو لا أن الصوت الصادر من كف أحدهم حين ضربها في الأخرى احتجزهم وجعلهم ينظرون له نظرة اشمئزاز ونفور، فنفسيتهم المتخبطة لا تحتمل أي هراء يعرقل سيرها، أدرك الأول حال عشيرته من نظراتهم الحارة قبل أن يقترح

- نذهب إلى عمه أبو طالب، ونخبره بخبر ابن أخيه محمد لعله يجد لنا حلاً معه

عقّب أحدهم من زاوية النادي وهو يقهقه مستهترا ساخطا

- يجد لنا حلّاً!! وهو الذي يمنعه ويحميه ويقف بجانبه غادر القوم بعد كلمات الثاني يجرون خلفهم أذيال الخيبة والخذلان.

أرخى الليل سدوله بأنواع الهموم ليبتلي الصادق الأمين ويقض مضجعه، انعزل تماماً عن كل ما حوله، وانطوى في محرابه بعيدا عن الأنظار، نظر للسماء نظرة تأمل وتفكر ثم سارر نفسه «أعلم يقيناً أن الله لم يرفعك أيتها السماء عبثا» ثم رمى بنظره لموضع قدميه مكملاً أسارير نفسه «وأعلم أن الله لم يبسطك أيتها الأرض إلّا لحكمة بالغة».

جال ببصره للأعلى ثم رفع يديه نحو السماء الداكنة بعدما جثا على ركبتيه، يلهج بلسان رطب متبتلا لربه بالدعاء والطلب، ودموعه الزرقاء تنسكب من مقلتيه مرورا بوجنتيه إلى أن تأخذ من الأرض مستقرا لها.

وقبل أن يعسعس الليل ويتنفس الصبح برئته المضيئة؛

اضجع الصادق الأمين على شقه الأيمن جاعلا من راحة يده اليمنى وسادتا لخده الأيمن، مطلقاً لفكره العنان متدبراً صنيع قومه ومعاداتهم له، بل الأدهى والأمر والذي عز عليه وآلمه أي ألم وأوجعه أي وجع هو ما عرضوه من زخرف الدنيا الزائل الفاني مقابل شرف الأخرة الخالد الباقي.

تسللت أشعة الشمس أنحاء مكة وبدأ مهرجان الحياة

طرق أحدهم الباب طرقات متتابعة، والقوم خلفه ينتظرون، أمر أبو طالب ذلك السيد المطاع المهاب في قريش صاحب اليد السخية والنفس الأبية أحد فتيانه ليرى من الطارق، عاد الفتى مسرعاً إلى أبو طالب ليخبره بأن أشراف قريش وكبار شخصياتها طلبوا مقابلته، اعتدل أبو طالب في جلسته وأصلح من هيئته قبل أن يأمر فتاه حتى يأذن لهم بالدخول

- تفضلوا يا معشر قريش

قالها أبو طالب: وهو ينظر لهم متفحصا

أخذوا أماكنهم في الجلوس وضلوا صامتين غير قليل

- أراكم مجتمعين؛ وأرجو أن يكون اجتماع خير يا سادات قريش

نطق أبو طالب كلماته وهو ما زال يقلّب النظر فيهم ويمرر أعينه على أوجههم يتفرسهم واحدا واحدا

تشجع أبو سفيان مردفا

- خير يا أبو طالب؛ إنما جئناك في أمر ابن اخيك محمد

- محمد!!

كرر أبو طالب متعجباً؛ تابع أبو سفيان حديثه وهو يشد على مخارج الحروف بقوة متناهية

- نعم محمد الذي سفّه أحلامنا وعاب آلهتنا وألّب علينا عبيدنا ، قصدناك يا أبو طالب لكي تضع حدّا لهذه المهزلة..

تناول أبو طالب طرف الحديث، وقد بدت على ملامح

وجهه المتجعدة من آثار الزمن مسحة احتقانٍ حمراء

- لا أسمح لك بأن تنعت ابن أخي بالمهزلة، فهو الصادق الأمين الذي تشهد له قريش والعرب قاطبه، بنقاء سريرته وصفاء علانيته كما تعلمون.

جفف أبو سفيان لعابه السائل مستأنفاً حديثه

- لم أقصد يا عزيزنا وسيدنا إهانة ابن أخيك وإنما جئناك لنقول لك...

راح يسرد أبو سفيان لأبو طالب ما عرضوه على ابن أخيه محمد، دون أدنى استجابة تذكر منه بل أحجم عنهم في صمت رهيب، والقوم يؤيدونه برؤوسهم التي تومأ إجابا تارة ونفيا أخرى.

بعد حديث طويل استطاعوا اقناع أبو طالب بأن يعيد الكرة مع ابن أخيه ويعرض عليه بضاعتهم المزجاة، لعلّه يرضخ لعمه الذي كفله وآواه وأحسن تربيته وقام مقام والده بعد وفاته.

بينما الصادق الأمين يتعبد ويتحنث بمقربة من الكعبة ضخمة البناء شاهقة الطول، إذ بمنادي يقول له: «عمك أبو طالب يريدك» تقوست حواجب الصادق الأمين مستغرباً «يا ترى ماذا يريد عمي؟! لا أذكر أنه طلبني في مثل هذا الوقت من قبل..» ظل يهامس نفسه حتى وصل إلى دار عمه.

طرق الباب طرقة خفيفة هادئة، انتظر بضعة ثواني، لم يجبه أحد، كرر الطرقة بقوة أعلى قليلاً من سابقتها، سمع صوتاً من خلف الباب يأمره بالانتظار، فُتح الباب، ادخل الفتى الصادق الأمين على عمه الذي استقبله بحفاوة عارمة والابتسامة تسطع من مبسمه، بادله الصادق الأمين الابتسامة بأجمل منها ثم طبع قبلتا دافئتا على جبينه ثم جلس بمحاذاته.

نظر أبو طالب مليا في ابن أخيه الذي بلغ كمال الرجولة ثم أردف:

- يا محمد ابقي علي وعلى نفسك، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به

امتقع وامتعض وجه الصادق الأمين وظل قابعا في صمته يسمع من عمه الذي أكمل حديثه بصوت رزين

- لقد أتاني قومي وقومك وعشيرتي وعشيرتك وأبناء عمومتنا، وقالوا لي ما قدموه لك من عروض مغريه لا يزهد بها اللبيب الحصيف؛ فتركتهم وغادرت صامتا دون أن تتفوه بكلمة

ابتلع أبو طالب ريقه وابن أخيه مطرقا رأسه للأسفل ساهما لا ينظر لعمه الذي تابع

- يا محمد أنت تعلم مكانتك وقدرك عندي، ولا أريد أن تنشق عصا القوم ويصبحوا أربابا متفرقين بسببك؛ فكفف عنهم وأقبل ما قدموه لك

رفع الصادق الأمين عيناه التي خفضهما حياء ووقار من عمه، وانسابت دموعه التي لم ينجح في حبسها وهو يقول حزنان أسفا:

- يا عم؛ والذي بعثني بالحق لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

ختم كلماته الأخيرة بثقة عمياء لم يرى مثيلها قط، أبصر عمه بريق عيناه الدامعتان فحن عليه كحنين الأم لرضيعها، وقبل أن يخرج الصادق الأمين من باب الدار الذي دخل منه؛ سمع صوت عمه أبو طالب الذي استوقفه حين قال:

- اذهب واصنع ما بدى لك يا بن أخي؛ وما عبدت العرب لا أُسلمك لهم ما دمت حيَّ

هدأ جأش الصادق الأمين وطمأن قلبه قليلاً بعد كلمات عمه، وعاد إلى ملجأه الذي يأوي إليه عند الازمات والنائبات؛ بالتأكيد زوجته الحبيبة والقريبة خديجة، فهي بلسم جروحه ونبض روحه.

بات القوم في حيرة من أمرهم يسارون أنفسهم، بعد أن استلقت الشمس على فراشها الوثير لتأخذ قسطا من

الراحة فقد أنهكها البزوغ طويلا، «بماذا؟ لماذا؟ كيف؟..» مطالع أسئلة باتت تراودهم وظلت تلف وتدور بأذهانهم إلى أن شوشتها وحجبت عنها التفكير بغير النوم، خلدوا في سبات عميق، مستيقظين على أشعة الشمس التي تسللت دورهم عبر النتوءات الصغيرة.

عاد محمد وعادت قريش؛ عاد محمد لدعوته وعادت قريش لعداوته؛ حين طال الخبر عليهم من عمه أبو طالب الذي تركهم يغرقون في أطلس الظنون، قرروا حينها أن يعودوا له مرة أخرى ليروا ماذا أسفر عنه اللقاء، و يسمعوا جوابه الذي أرقهم وأرهقهم انتظاره فهم قوم يحبون العاجلة ويذرون الأخرة.

وقبل أن يشرعوا في الذهاب، دار بينهم الحديث دوران الطائف بالبيت العتيق، ثم أجمعوا أمرهم على عرضٍ جديد لم يسبقهم عليه أحد، فقد كانوا يفكرون ويدبرون بمعونة إبليس مستشارهم الرئيس.

***

بينما الصادق الأمين يدعوا الناس بجد واجتهاد إلى عبادة الله وحده ونبذ ما سواه؛ رفع أبا جهل صوته القبيح في الجهة المقابلة متهكما ومتحديا

- يا أبو طالب إما أن تمنع وتردع ابن اخيك أو تخلّي بيننا وبينه، نحن نكفيك هو

جلس أبا جهل بعد إشارة أبو لهب الذي قام يتحدث بحدة وشدة الأول

- إن أمر محمد استفحل، وبلغ السيل الزبى؛ واللات والعزة إن لم تكفه عنا ل..

قاطعه أبو سفيان مستدركاً

- يا سيد قريش وعزيزها؛ إن قومك غاضبين مما فعله ابن اخيك بهم، وأنت أطلت المدة في جوابهم

تنحنح أبو سفيان قبل أن يكمل

- لكن لا عليك، ما فات مات، والآن قصدناك بحلّ وسط يرضيك ويرضينا ويجعلنا متناصفين

رفع أبو طالب عصاه الغليظة مدببة الرأس ثم أنزلها على الأرض مصدرتا دويا عالي، بعد الارتطام الذي حدث، لفّ ذراعيه حولها وضمها لصدره ثم قال:

- هات ما عندك يا أبو سفيان، آذاني لك صاغيه

ازدرد أبو سفيان ومن معه لعابهم، الذي جف من منظر أبو طالب المهيب، استجمع أبو سفيان قواه وهو يقول في ارتباك واضح:

- جئناك بأوسم وأثرى وأعز شباب قريش؛ تأخذه ابناً لك وهو نعم الابن المطيع البار لك، مقابل أن تسلمنا محمد...

ضرب أبو طالب الأرض بنفس العصى ضربتا انشقت لها أسماعهم ووجفت منها قلوبهم، وقف مستندا على عصاه، بكبرياء السادة، وصاح بصوته الغاضب الصاخب

- بئس ما جئتم به؛ تعطونني ابنكم أُغذية لكم، وأعطيكم فلذة قلبي تقتلوه؛ هذا ما لا يكون ما دمت على قيد

الحياة.

ختم كلامه معرضا وجهه عنهم، في حين تبادل القوم النظرات خلستا بينهم البين، ثم انصرفوا من غير فعل أو قول يذكر، وقد غلت رؤوسهم ونفوسهم غليان الماء في الإناء.

لاحت الشمس لتأذن للناس بالبحث عن معاشهم، كان الجو شديد الحرارة والهواء منعدم نوعاً ما

- يا قوم يا قوم اسمعوا ما قاله أبو طالب من الشعر:

إِذا اجتَمَعَت يَوماً قُرَيشٌ لِمَفخَرِ

فَعَبدُ مَنافٍ سِرُّها وَصَميمُها

فَإِن حُصِّلَت أَشرافُ عَبدِ مَنافِها

فَفي هاشِمٍ أَشرافُها وَقَديمُها

فَإِن فَخَرَت يَوماً فَإِنَّ مُحَمَّداً

هُوَ المُصطَفى مِن سِرّها وَكَريمُها

تَـــداعت قُـــرَيش غثُّهـــا وسَـــمينُها

علَينا فلَم تَظفَر وطاشَت حلومها

وكُنّــــا قَـــديماً لا نقُـــرُّ ظُلامَـــةً

إذا مــا ثَنــوا صَــعر الخُــدود نقيمهــا

ونَحمَــي حماهــا كُــلَّ يَــوم كَريهَــة

ونَضــرِب عَــن أَحجارِهــا مَــن يرومهــا

بنَــا انــتَعش العَــودُ الــذَواء وإنَّمــا

بأَكنافنـــا تنـــدى وتَمَـــى أُرومهـــا

هُمُ السادَةُ الأَعلَونَ في كُلِّ حالَة

لَهُـــم صَـــرمَةٌ لا يُســـتطاع قُرومُهـــا

يَـــدينُ لَهُـــم كُـــلُّ البريَّـــة طاعَـــةً

ويُكـــرِمهم مـــلأَرض عنـــدي أَديمهـــا

وقعت الأبيات على القوم كالطامة الكبرى فمع كل شطر من أشطر القصيدة ترشح جباههم وتحمر وجههم وتسود الدنيا في عيونهم، فلا مأمن ولا مهرب لهم الآن، لأنهم

يعرفون أبو طالب حق المعرفة فهو رجل يختلف عن بقية الرجال، رجل إن قال كلمة لا يرجع عنها وإن كلفته روحه.

انتشرت أبيات القصيدة وراح يتناقلها الكبار والصغار، وعندما سمعها الصادق الأمين لأول وهلة سر بها أيما سرور، واتجه يركض نحو عمه يشكره على صنيعه؛ ويحاول دعوته مجددا، فهذا الوقت أنسب وقت في نظره، «هذه فرصتي الذهبية علي انتهازها في أسرع وقت ممكن، فهو لم يقل قصيدته إلا بدافع الحمية والنخوة والغيرة؛ أرجو أن يذعن لدعوتي ويترك ما هو عليه من الشرك» غمغم الصادق الأمين بهذه الكلمات في نفسه.

دخل على عمه بغتتا من شدة حبوره فوجده في حالة يرثى لها؛ حينها سأله

- ما بالك يا عم؟! فحالك لا تسر الناظرين

أجابه عمه بعد أن حدق فيه طويلاً

- إنني خائف عليك من بطش القوم يا محمد

ربت الصادق الأمين على كتفه بحنان غامر، ثم قال:

- هون عليك ولا تخف إنني في معية الله

صمت لحظة ثم أردف بلهجة الناصح المشفق

- أما آن لك يا عم أن تتبعني، وتشهد أن لا إلاه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وتدخل في دين الإسلام

نظر أبو طالب في ابن أخيه طويلا جدا جدا، ثم شخص ببصره إلى الأعلى وكأنه يتأمل شيء ما، ثم عاد ببصره نحو الصادق الأمين، ثم شاح بوجهه مردداً:

وَاللَّـــه لَــن يصــلوا إلَيــكَ بجمعهــم
حَتّــى أُوسَّــدَ فــي التُــراب دَفينــا
فَاصــدَع بــأَمركَ مــا عَلَيـكَ غَضاضَـةٌ
وابشــر بــذاكَ وقَــرَّ منــهُ عُيونــا
وَدَعَــوتَني وزعمــتَ أَنَّــكَ ناصــحٌ
ولَقَــد صــدَقتَ وكُنــتَ ثَــمَّ أَمينــا

وعَرَضــتَ دينــاً قَــد علمــتُ بأَنَّــهُ
مــن خيــر أَديــان البريَّــة دينــا
لَــولا الملامَــةُ أَو حــذاري ســُبَّةً
لَوجــدتني ســمحاً بــذاكَ مبينــا

حين سمع الصادق الأمين هذه الابيات أدرك يقينا أن من يضلل الله فما له من هاد، ولو أنفق ما في الأرض على هدايتهم لما استطاع، «هو نور الله يهدي له من يشاء من عباده» قالها في سره، وهم بالانصراف.

اجتمع أبو لهب وأبو جهل على موعد مسبق بينهما، بدأت تلوك ألسنتهم عارضين ما حدث بالأمس القريب من قبل أبو طالب الذي زمجر في وجوه القوم كالليث الهصور دون أن يعارضه أو يقاطعه أحد، ولم يكتفي بذلك بل إنه عزز موقفه الصارم بعد خروجهم من مجلسه بقصيدة مجلجلة مدوية ذاعت وانتشرت داخل مكة، وسارت بها الركبان خارجها، كل ذلك في سبيل

نصرة ابن أخيه، «العجيب في ذلك أنه لم يتّبعه ولم يدخل في دينه، رغم مؤازرته العنيفة له» قالها أبو لهب وعيناه متسمرتان في عيني أبو جهل الذي ظل صامتا يتأمل كلمات رفقيه، قبل أن يفترقا ويذهب كلا منها لقضاء حوائجه.

طاف الصادق الأمين بالبيت ثم أخذ له زاوية معروفة عند مستضعفين مكة، وكدأبه الذي دأب عليه انطلق يدعوهم لعبادة الله وحده لا شريك له، ويعلمهم أمور الدين، ويفقههم في الحلال والحرام لكيلا يختلط عليهم لحداثة عهدهم بالإسلام.

«لن تدعه قريش وشأنه، إنهم قومي وعشيرتي فأنا كبيرهم ورأسهم وأعرف الناس بهم؛ مع ذلك سأدافع عنه ولو كلفني أغلى ما أملك، لن أدعهم يظفروا بشعرة من مفرق رأسه الطاهر، ولد يتيم الاب وفقد أمه في سن الطفولة ومع هذا فقد نشأ كريم الخصال حميد السجايا، لم يقبع في أدران القوم قط، ولم ينحط انحطاطهم، وإنما ظل

ثابتا محافظا على قيمه ومبادئه..»

بات أبو طالب ليلته على ضوء القمر التي تعكسه صفحة السماء؛ مشغول البال يفكر في ابن أخيه، طرق النوم باب جفنه أكثر من مرة لكن دون جدوى، سهر طوال الليل يهامس نفسه حتى أصبح الصبح بنسيم غريب يداعب رمل مكة الذهبي فينثره يمنتاً ويسرتاً بسخاء وجود، حاملاً معه رائحة تنعش الافئدة، وكأنها تبشّر بدموع السحاب.

- ادخل يا أبا جهل، فالأمطار غزيرة اليوم

دخل أبو جهل وهو ينفض الماء عن ثيابه، اغلق أبو لهب الباب خلفه مباشرتا تحاشيا من الماء الذي صعرت به السماء خدها، «عمت صباحا.. عمت صباحا» تبادلوا التحيا، ثم شرعوا يخوضون في الحديث عن الصادق الأمين، وكأنه لا توجد قضية بمكة غيره والغريب في الأمر أن البعض تشاغلوا عنه وعن أمره والتفتوا لشؤن حياتهم ومعيشتهم، إلا هما.

خططا كي يكيدوا الصادق الأمين ويضرمون النار في صدره النقي الصافي، عزم أبو لهب أن يأمر ابنيه عتبه وعتيبة بطلاق ابنتي الصادق الأمين رقية وأم كلثوم، من غير ذنب أو خطية بل نكالا بهما وبأبيهما الذي أرسله الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، في حين عزم الآخر ازدرائه والتحقير من شأنه، والقدح والطعن في صدقه وأمانته التي عرف بهما منذ نعومة اظفاره أمام الملأ دون مراعاة إلّا ولا ذمة –قرابة وعهد ـ ، وما هذا إلا مكرا من عند أنفسهم الخبيثة التي تأمرهم بالسوء والفحشاء.

الحقد والحسد من المصائب العظام الجسام التي تملأ قلب الانسان فتجعله كالبهائم أو أشد، فتراه لا يفكر بعقله الذي ميزه عن سائر المخلوقات، وإنما يتولى الشيطان مهمة التفكير عنه؛ فيزين له الباطل ويقبح له الحق، حتى يظن أنه على الطريق السوي، وهو عكسه تماماً.

عادت رقيه وأختها إلى دار أبيهما، الذي ذهل وصعق

حينما رأى حالتيهما التي لا تبشر بخير فبادرهما بالسؤال وهو يمسح الدمع عن أعينهما بلطف ورأفة

- ما خطبكما؟

تلعثمت رقيه ولم تستطع الحديث، أما أختها أم كلثوم رمت بجسدها المنهك على صدر والدها وهي تنزف الدموع بحرقة، ثم مضت تسرد له ما حصل لهما بنشيج عارم منبعه أعمق أعماق قلبها المقهور، ربت والدها بدوره على رأسها وراح يخلل أصابعه بين خصلات شعرها بهدوء هامساً في أذنها «يا بنيتي الحبيبة إني رسول هذه الأمة، ونبي آخر الزمان، وما ألقاه من سوء وأذى فقد لقيه الأنبياء والرُّسل من قبلي، لهذا تحلي بالصبر، وأعلمي أن أباك على الحق وأن الله ناصره وحاميه حتى يبلّغ الرسالة ويؤدي الأمانة؛ فمهما طال الظلام ستشرق شمس الإسلام»

غادر الصادق الأمين داره والكمد قد خيم على ملامح وجهه الآسرة، متجهاً نحو الكعبة ليناجي ربه الذي وعده

بالنصر والظفر، ليخفف مصابه العظيم في ابنتيه، فوجد أبى جهل شاخصا أمامه يتربص به الدوائر، ينتظره على قدم وساق.

- أتيت وأنا الذي ظننتك لن تأتي أيها الجبان، الساحر، الأفّاك..

وراح يقهقه بصوت منكر صاخب؛ مما جعل الرسول يتسمر مكانه دون حراك فلا يعلم أين المفر، إن عاد للدار وجد ابنتيه المطلقات بسبب أبو لهب فتتقطع أحشائه حسرتا عليهم، وإن خرج للكعبة يناجي ربه وجد أبو جهل يعامله بجهل ونزق لا يحتمل، بينما هو غارق في لج أفكاره؛ مالِ فرعًون هذه الامة بجذعه، التقط حفنة من الرمل، ثم لفّ لفّة كاملة وهو يشير بيده الفارغة لمن حوله بزهو وعتو، وحين اتم لفّته وقابل وجهه وجه الصادق الأمين رماه بحفنة الرمل على صدغه الأيمن وابتسامته الساخرة مرتسمة على محياه.

طفق الناس يشاهدون ما يجري أمام أعينهم دون أن

يجرئ أحدهم على قول أو فعل شيء، خوفا من جور الطاغية؛ تمادى أبو جهل في شتم وسب الصادق الأمين أمام الملأ دون رادع يردعه أو حياء يخجله أو سلطة تحجزه، فهو كبير قومه وسيدهم وأحد عتاة قريش المحسوبين.

وممن كان حاضرا المشهد جاريه لعبد الله بن جدعان أحد أسياد قريش، تفطّر قلبها مما رأته وسمعته إزاء أعز وأشرف رجال قريش حسبا ونسبا، محمد الذي عرف بمكارم الاخلاق من كرم وشجاعة وصبر ورفق ولين ووفاء بالعهد إلى غيرها من الصفات الحسنة التي ميزته عن أقرانه، رنت في ذهول وهي تخالج نفسها «ماذا عساني أفعل أمام جبروته الطائش ولسانه الفاحش؛ آه يا أبى جهل كم لك وأنت تهيننا وتسومنا سوء العذاب وتمنعنا من الدخول في الإسلام بسلطانك النافذ فينا؛ لكن لن نستسلم ولو بلغت أرواحنا الحلقوم»، تقوقعت على نفسها تاركتا الدموع تتساقط على وجنتيها أربعا أربع ـ

وإن فاضت وثارت حميتها تظل امرأة لاحول لها ولا قوة في مجابهة الرجال ـ .

نفض الصادق الأمين ما وقع على صدغه من رمل، ثم انحنى قليلا بجسده وهو ينفض بقايا الرمل العالقة ببرده الحضرمي، وما أن رفع رأسه حتى تناوله أبو جهل بقبضتيه ممسكنا بتلابيبه يجره ذهابا وإيابا بقوة، ثم دفعه للخلف بشدة جعلت طوق برده يتمزق، وعكف يردد بصوت عالي

- يا معشر قريش؛ انظروا لهذا الصابئِ عن دين آباءه وأجداده، انظروا للكذاب الأشر الذي يدعي النبوة ويزعم أنه خاتم النبيين وخير المرسلين، وأن الملَك يأتيه بالوحي وبأخبار السماء.

ركل الرمل بقدمه نحو الصادق الأمين قبل أن يكمل مستهزأ

- أين الملَك؟! لماذا لا يأتي ويدافعك عنك؟!

سكت برهة قصيرة ثم أضاف ساخراً:

- تعلمون لماذا؟

- لماذا؟

استفهم المتجمهرون من القوم في آن معا.

أطلق صيحات مجلجلة أردف بعدها

- لأنه كذاااب، ألم أقل لكم من قبل أنه مذمم؟

ضحك القوم وتابعهم بدوره ضاحكا متهكما بكبرٍ وغطرسة وكأنه بلغ عنان السماء بصنيعه المشين المخزي.

شعر الصادق الأمين أنه بين فكّي التمساح أبو لهب من جهة وأبا جهل من جهة، تحامل على نفسه وسمح لقدمه بالسير قدما نحو مخدعه الآمن في أحضان وأكناف زوجته بنت خويلد، وهو صامت لم يتفوه بحرف واحد ولم يدافع عن نفسه انتقاما وثأر لها من قومه –بالأصح خصومه ـ .

ظل يتمتم بينه وبين نفسه طيلة الطريق «يا لهف نفسي، عشيرتي هم أعدائي، يا رب اهدهم للحق وانر قلوبهم

بنور الايمان، وأعني على إيصال رسالتك التي أمرتني بها، وهب لي من لدنك ولياً نصير».

خرجت الجارية وهي تسابق الريح حين رأت الفارس المغوار حمزة بن عبد المطلب أعز فتيان قريش وأقواهم شكيمةً وأشدهم بأساً، عائداً من رحلة الصيد التي أعتاد عليها، نادت بصوتها قبل أن تتنفس الصعداء

- يا عم الرسول وأخوه من الرضاعة؛ قف

سحب حمزة خطام جواده نحوه موقفا الجواد، التفت للوراء، إذ بجارية عبد الله بن جدعان تركض نحوه مسرعتا، ظل ثابتا في مكانه ينتظرها بعد أن عاد بنظره للأمام ليرى ماذا تريد؟ وعلما هذا العويل والصراخ؟؛ توقفت الجارية أمامه وهي بالكاد تلتقط أنفاسها، لم يحدثها وظل صامتا ينظر لها من فوق خيله نظرة تعجب، تداركت أنفاسها الملتهبة ثم بادرت بالقول:

- هل تعلم ماذا فعل الوغد أبا جهل بابن أخيك محمداً؟!

- ماذا فعل؟

قالها في حنقن وامتعاض وقد اشتدت عروقه وانتصب جسده، لأنه سمع وعلم سابقا بإيذاء قريش لابن أخيه خصوصاً أبو لهب ونديمه أبا جهل، لكنه لم يرى شيئاً بأم عينه، فمن عادته ألا يتخذ قرار أو يفعل شيء حتى يرى ويتثبت من حقيقة الأمر بنفسه، وهذا ما جعله لا يلقي بالاً لما سمعه من كلام الغوغاء.

حين أمعن النظر في الجارية وتفحص هيئتها وركضها ونبرات صوتها المتقطعة من أثر النشيج أدرك بفطنته وكياسته أن هناك ما يستدعي الوقوف والسماع لها.

سحبت نفسا عميقا جدا وكأنها تغوص أعمق أعماق المحيطات ثم زفرت وهي تردد

- لقد آذاه وشتمه أمام الملاء، ولم يجرئ أحد على صده أو منعه، لم يكتفي بذلك بل التقط حفنة من تراب الأرض والقاها على ابن اخيك، ونعته بالكذب..

قاطعها حمزة وقد بدت على ملامحه الغضب وهو يقول بنبرة رزينة:

- وماذا فعل محمد؟؟

ابتلعت ريقها عندما رأت تقاسيم وجهه الحارقة وبشرته التي مالت للاحمرار مردفتا

- لم ينبس بكلمة؛ وظل ساكتا كأن الطير...

أخذته الحمية لأخيه من الرضاعة فانطلق مسرعا بجواده قبل أن تكمل حديثها متجها نحو أبا جهل.

التفت القوم للجواد العادي القادم نحوهم يثير النقع خلفه كأنه الريح المرسلة، اقترب أكثر وأكثر؛ صاح أحد المتجمهرين

- إنه صياد الأسود –حمزة بن عبد المطلب ـ

هبط من صهوة جواده لتصافح قدمه القوية الأرض المستوية، متتكباً قوسه يمشي بتؤدة تدل على الثقة والاعتداد بالنفس، دفع القوم عن يمينه ويساره واتجه مباشرة نحو أبا جهل، وقف أمامه كالطود العظيم فقد كان حمزة فائق الطول صلب الجسد متين البنيان رياضي العضلات، حدق فيه ملياً قبل أن يسأله قائلاً:

- أشتمت محمد؟!

أشاح أبا جهل بوجهه بعيدا عن حمزة وهو يجيبه بسخرية مترنحا

- تقصد السفيه مذمم

استشاط حمزة غضباً من ردة فعل أبا جهل ولم يتمالك نفسه؛ فرفع القوس عاليا ثم هوى بها بسرعة وقوة جنونية على رأس أبا جهل الذي خر ساقطا والدماء تسيل من اعلى رأسه إلى أخمص قدميه، من أثر الضربة؛ حملق حمزة في أبا جهل ثم صرخ في وجهه

- ردها علي إن استطعت؛ أتشتمه وأنا على دينه

تدافع القوم وهبت عشيرة أبا جهل الأقربين يريدون القصاص من حمزة الذي أهان وشج رأس كبيرهم وسيدهم

هنا صرخ أبا جهل والدماء لا تزال تشخب من رأسه

- يا قوم؛ دعوا أبا عمارة فقد شتمت ابن أخيه شتما

مقذعا، وتقولت عليه الاقاويل وفعلت به الافاعيل

لم يتحرك حمزة من مكانة مثقال ذرة، ولم يعرهم أية اهتمام يذكر، وراح يوزع نظره فيهم ثم رفع صوته بنبرة حادة وقوره

- أنا على دين محمد أقول ما يقول، فمن استطاع منكم أن يمنعني فليفعل!!

انتظر؛ وعندما لم يرى ردة فعل حقيقية، تنكّب قوسه معتلي صهوة جواده الأصيل، تاركهم خلفه في غيضهم يعمهون دون أن يبالي بهم.

***

- ابشر يا رسول الله، أسلم حمزة وسيعز الله به الإسلام

صاح بها أحد الذين أمنوا بدعوة الصادق الأمين؛ تهللت أسارير الرسول عند سماعه الخبر الذي طالما انتظره انتظار الأم لوحيدها الغائب أمداً طويلاً، بدت نواجذه ناصعة تبرق بريق الألماس، ذرفت عيناه، جثا على

ركبتيه رافعاً أكف الضراعة نحو السماء يدعو بابتهال وإذلال وانكسار

- اللهم أعز هذا الدين بأوليائك الصالحين وثبتهم...

- آمين

قالها المبشر بإسلام حمزة وهو يعانق رسول الله ـ محمد بن عبد الله ـ والحبور والسعادة تغمرهما.

غابت الشمس وخيم الليل المعتم على أرجاء أم القرى فلم يدع شيء إلّا وكساه بوشاحه الداكن، نامت أعين الناس، وعين حمزة لم تعرف للنوم طريقا ظل طوال الليل يتقلّب على فراشه يمنتا ويسره، رغم محاولاته الجادة التي قضاها باحثا بجفنه عن الكرى إلّا انه قام فزعا من مضجعه بعدما قضته الوساوس.

ظل حائرا في حجرته ذهابا وإيابا يسارر نفسه «ماذا فعلت يا حمزة ـ فارس قريش وأعز فتيانها ـ هل تركت دين آبائك واجدادك الذي نشأت عليه» أخرج لسانه من فمه وضغط عليه بسبابته وإبهامه وهو يردد في نفسه

«أنت السبب فيما جرى لي» ترك لسانه يعود لمكانه الطبيعي ثم تابع «هل حقاً اتبعت دِينِ محمد أم أنها حمية ودفاع حيال ابن اخي...»، سهِر ليلته مسهد، أرقته الأسئلة والظنون.

بينما هو ذاهلٌ في صراعة النفسي، تمثّل له الشيطان وأخذ يوسوس له في نفسه «أتترك دين عشيرتك؟! وتتبع دينا جديدا لا تعرف عنه شيء ولم تسمع العرب عنه من قبل، أتتخلى عن العز والشرف والمكانة التي تحظى بها بين قومك؟! يا حمزة، لن تقوم لك قائمة إن اتبعت محمد، فسادات قريش معظمهم يناصبونه العداء والبغضاء والجفاء...».

بات حمزة في نزاع محتدم تعتلج به نفسه، ولسان حاله يقول: «اللهم إن كان رشدا ما صنعته فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا» ثم توجه نحو الكعبة وقد اطمأنت نفسه بعض الشيء، راح يدعوا مبتهلا متضرعا بخشوع وخنوع تام ثم قام وهو

يقرض الشعر بعد أن غشيته السكينة وسكن جنانه وهدء روعه

حَمـدتُ الله حـين هَـدى فُـؤادي
إلــى الإسْــلام والــدِّين الحنيـف

لــدينٍ جَــاء مــن ربٍّ عزيــزٍ
خبيــرٍ بِالعبــاد بهــمْ لطيــف

إذَا تَلِيـــت رســـائلُه علينـــا
تحدَّر دمع ذي اللُّب الحصيف

رسَـائلُ جَـاء أَحمـدُ مـن هُـداها
بآيـــات مبينـــات الحُـــروف

وأَحْمـدُ مصـطفى فينَـا مطَـاعٌ
فَــلا تغشــوه بِــالقول العنيــف

فَــــلا واللهِ نُســــلمهُ لقَــــوم
ولــمَّا نقــضِ فــيهمْ بِالسُّــيوف

ونَتــركُ مــنهم قتَلــى بقَــاع

عليهـا الطِّيـر كـالورد العكـوف

وقَدْ خَبِّـرتَ مـا صـنعتَ ثقيـفٌ

بــه فَجـزي القَبائـلُ مـن ثَقيـف

إلــه النَّــاس شَــرَّ جَــزاء قَــوم

ولا أَســقاهُم صَــوب الخريــف

بدأت الشمس في الظهور معلنتا بداية يوم وصراع جديد اجتمعت قريش عن بكرة أبيها يلوكون بألسنتهم ما دار بين أبا جهل وحمزة بن عبد المطلب، غير مصدقين أن حمزة أعلن إسلامه وصبأ عن دينهم الذي توارثوه أبا عن جد؛ قاطعهم أبو لهب وهو يصرخ محتنقاً

- هذا كله بسبب ابن أخيه محمد

أردف أبا جهل وهو يضع يده على القماش الملتف حول رأسه من آثار ورواسب الضربة التي تلقاها

- هذا ما لم يكن على الحسبان حمزة –صياد الأسود ـ يسلم!!

تابع ثالث وهو يعض على أسنانه ويفرك راحة يديه

- ستقوى شوكة محمد ويعتلي شأنه إن لم...

قاطعه أبو سفيان موبخاً

- لا طائل من هذا الكلام، فقد قويت شوكته منذ أن صدقته وآمنة به زوجته الحصان الرَّزان خديجة، وعمه أبو طالب ذلك الكهل الطاعن في السن سيد سادات قريش حين معنه وآزره.

هاج وماج أبو لهب وانتفخت اوداجه واحمرت عيناه كأنها لظى، قبل أن يصيح بصوته القبيح

- وما العمل إذا؟! هل سنظل مكتوفي الأيدي؟!

أجابه أبو سفيان مسرعاً قبل أن يجيبه أحدهم

- المقاطعة

اتسعت أحداق القوم، وسال لعاب بعضهم، وهم يرددون

بصوت واحد مشدوهين مما سمعوا

- ماذا؟!

وثب أبو سفيان ممتثلا أمامهم بأنفته وغروره المعهود عنه، ثم القى بظهره نحوهم ويداه متعانقتان خلفه، وهو يقول ضاغطا على مخارج الحروف بشدة تامه:

- لا أعلم لكم حلّاً أمثل ولا دواء أنجع من المقاطعة؛ فإن قاطعناهم سيرخون لنا آذانهم وتستقيم لنا قناتهم ويخضعون لنا بالقول اللين وهم صاغرين.

***

دخل حمزة حجرة أخيه من الرضاعة بعد أن طرق الباب وأذن له بالدخول، جلسا أمام بعضهما وهنا التقت الأعين في لحظات صمت يدقق كلا منها في وجه صاحبه، تنحنح حمزة ثم سأل برزانة ووقار

ـ هل علمت بإسلامي؟

أجابه الرسول بنبرة حانية

- نعم؛ وحمدت الله الذي هداك لرشدك، وأخرجك من الظلمات إلى النور

عادا لصمتهما وهلة من الزمن، ثم أستطرد حمزة

- يا ابن أخي لم أذق طعم النوم بالأمس، وأنا أعلم أنك الصادق الأمين الذي لا يشك ولا يرتاب أحد في صدقه، لأننا لم نعهد عليك كذبا قبل ذلك، فحدثني عن أمرك

نظر له الرسول، وقام من مجلسه ليجلس بجواره ثم مسح على رأسه وربت على كتفه وهو يرنو في أذنه:

- يا عماه والذي بعثني بالحق إنني لا أنطق عن الهوى، بعثني الله بأمره حتى أنشر دينه، وذلك بواسطة الوحي الذي أخبرني بأني رسول هذه الأمة وخاتم النبين

- الوحي؟!

- نعم؛ هو ملَك من الملائكة الكرام، اسمه جبريل وهو الذي يتنزل علي بأوامر الله ونواهيه

وثب حمزة كالليث الهصور وهو يزمجر

- دعني اقتص لك منهم يا رسول الله

- على رسلك يا عماه، لعل الله أن يهديهم للحق

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، امضي لما أُمرت به وستجدني الحصن الحصين والدرع المتين لك

حضن الرسول عمه بشدّة وقربه إلى صدره ودموع الفرح تتساقط منه تساقط الغيث على الأرض المجدبة.

***

- يا معشر قريش آذينا محمد وصحبه ونكّلناهم أشد العذاب وقاطعناهم، فلم يزدادوا إلّا ثباتا وكثرة، ففي كل يوم يسلم فئام من الشرذمة الضعفاء ويدخلون في دين محمد

قالها أبا جهل وهو يومئ برأسه الذي التأم إلّا قليلاً

غمغم أبو لهب مؤكداً

- الأدهى والأمر أنه قد هاجر من هاجر منهم للحبشة مستجيرين بملكها النجاشي ذلك الملك العادل الذي لا

يظلم عنده أحد، وهذا قد يحول بيننا وبينهم.

انتصف النهار وتوسطت الشمس كبد السماء، وما زالت قريش تخطط وتدبر لصد الدعوة المحمدية مستميتين أمامها بكل الطرق والوسائل المشروعة وغير المشروعة، هدفهم الوحيد فتنة محمد واتباعه عن دينهم.

بعد أيام معدودات خرج شاب من شباب قريش الأشاوس لا يشق له غبار يقال له عمر بن الخطاب معروف بأنه إذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع وإذا تكلم أسمع، متوشحاً سيفه طويل النجاد قاصداً الصادق الأمين، حين علم بأنه مجتمع مع نفر من أصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم يعلمهم أمور دينهم، ويتلو عليهم كلام ربهم، ويطهرهم من نجس الجاهلية والشرك المقيت.

طرق باب الدار بقوة أفزعت من بالداخل عدا الصادق الأمين وحمزة بن عبد المطلب ظلا راسخين رسوخ الجبال في هدوء وسكينة تامه، نظر أحدهم من زاوية الباب بطرف عينه فرأى ملامح عمر، التف برأسه

وعينيه على من في الدار وهو يهمس بصوت خافت

- إنه سفير قريش ـ عمر بن الخطاب ـ متوشحا سيفه

- إن أراد خيراً فخير، وإن أراد شراً قتلناه بسيفه

صرخ بها حمزة بعد أن نهض واثبا يجول بنظره فيهم، كأنه يطمئنهم ويشجعهم، ثم تبعه الصادق الأمين ناهضا فنهض الجميع لنهوضه، اتجه الصادق الأمين نحو الباب دون أن ينطق بحرف، فتح الباب بقوة ثم سحب عمر من تلابيبه بيده اليمنى بسرعة متناهية، أما يده اليسرى فضغط بها على حمالة السيف، ثم استدار به ودفعه بشدة نحو الدار، استجاب عمر للرسول دون أي مقاومة فهو يعلم أن الرسول يفوقه قوتاً وشجاعة، عاد الصادق الأمين ممسكا بتلابيب عمر وهو يجره ذهاباً وإياباً ثم صاح في وجهه

- أما آن لك أن تسلم يا ابن الخطاب

ازدرد عمر ريقه وتجمدت عروقه ويبست شفاهه واضطرب فؤاده واختل جنانه، حتى نطق بفمه متلعثماً

- أشهد أنك رسول الله

- الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

اعتلت صيحات القوم ورجع له الرسول فضمه بعد أن تركه يلتقط أنفاسه، وهو يمسد على رأسه ويهمس في أذنه مغمغما

- لقد استجاب الله دعائي؛ وأعز بك الإسلام

لامست كلمات الصادق الأمين قلب عمر، فجعلته يقول ببسالة وشجاعة:

- يا رسول الله، أنحن على الحق؟!

- بلى يا عمر

- والذي بعثك بالحق لا نختبأ ما دمنا على الحق

ختم عمر كلماته في ذهول وصمت وحبور ونشوة أصابت أصحاب رسول الله، ذهبوا يحدثون أنفسهم «الحمد لله الذي آزرنا بإسلام عمر وحمزة من قبله؛ الآن نستطيع أن نقاوم عتاة قريش».

خرج عمر من حينه ووراءه صف من المسلمين، وحاذاه

حمزة بصف آخر يرددون بعالي حناجرهم «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

فزعت قريش مما سمعته وأعترها الهم والغم مما رأته، فقد خرج بعضهم من داره إثر الصوت المجلجل والكلمات الصاخبة، وتبعهم آخرين خارجين من أنديتهم، وذهل كل من كان بالطرقات من هذه الجرأة، تجمهروا جميعهم يتسألون بينهم «أنحن في حلم أم علم؟! هل فقد هؤلاء الشرذمة صوابهم؟!».

ظلوا ينظرون طويلا نحو المسلمين وعندما وقعت أعينهم على عمر وحمزة دبت في أجسادهم قشعريرة ظهرت جليتا على بشرة وجيههم التي مالت للسواد، اندفعت قريش نحو الصفين في صبر نافذ متصادمين ومتعاركين بالأيدي معهم لفترة ليست بالقصيرة، وحين بلغ الجهد والإعياء كلا الفريقين أخذت قريش بالتهديد والوعيد، منسحبتاً أمام صمود المسلمين.

عادت المصائب تهطل على الصادق الأمين، قريش تؤذيه من ضفة، وعمه أبو طالب الذي كان ينافح ويذود

عنه من الضفة الأخرى فما هي إلا أيام قلائل مرِضها ثم فارق الحياة بعدها، ازداد الحزن على الرسول ليس بموت عمه فقط –وإن كان الخبر قاسم للظهر ـ بل وبما لقيه من شماتة أعدائه.

وكأن الحزن قطع عهدا على نفسه ألّا يفارق الرسول، فبعد موت عمه بفترة وجيزة تلقى خبراً وقع عليه وقع الصاعقة...

***

- عمتم صباحاً يا معشر قريش

قالها بطرب وسرور عارم، وهو يهز بجذعه كالثمل

- عمت صباحاً يا أبو لهب

رد عليه القوم، ثم نهض أبا جهل من مجلسه قائلاً:

- ترى ما سر سرورك العجيب هذا؟!

وضع الأول يده على كتف الثاني قبل أن يجيبه

- ويحك!! ألم تعلم أن خديجة زوجة محمد فاضت روحها

- ماذا؟!

صاح بها القوم معاً متعجبين

- اليوم نشرب الخمر ونعزف الألحان ونرقص احتفاء بهذه البشرى

تراشق القوم الضحكات، وكأنهم لم يصدموا للتو بالخبر المفاجئ المفجع، وراحوا يتبادلون الايماءات الساخرة بينهم، إلى أن قال أبو سفيان وهو يترنح بجسده يمينا ويسارا من شدة الضحك:

- هذه عقوبة من يخرج عن ملة آبائنا وأجدادنا

تابع حديثه وهو يقهقه متشمتا

- في البداية فقد عمه الذي كان يحميه من قبضة وبطش أيدينا، والآن فقد زوجته التي كانت تسانده وتعينه وتخفف عليه نوائب الدهر، فلم يبقى له أحد يمنعه أو ينصره في مكة، لسيما بعد مهاجرة أتباعه إلى الحبشة، قههههه

هنا وقف أحدهم معقباً

- بل بقي له أعز فتى في قريش وأقواها شكيمة عمه حمزة بن عبد المطلب، فهو يتضايق ويضجر من مضايقتنا المستمرة والدؤوبة لابن أخيه

توجع القوم وأوجسوا خيفة بعد سماع هذه الكلمات التي نزلت عليهم كالصاعقة المدوية لا تبقي ولا تذر.

دخل الصادق الأمين عقر داره وهو شاحب الوجه منهك القوى ذابل الأطراف يتأمل في حاله ومآله الذي صار إليه، بعد مصابه الجلل في عمه وزوجته اللذين توفيا في العام ذاته، ذلك العام الذي عرف بعام الحزن لشدة وقعه على الرسول وما بلغ به من شجن وأسى، فقد رحل من كان يؤنسه ويصبره ويسليه، ويقوي عزمه ويشحذ همته ويجدد نشاطه ويشعل حماسه للاستمرار في الدعوة إلى الله؛ وحين فاض به الكيل قرر أن يسافر للطائف راجياً عند أهلها مأمن وملاذ يلوذ به عن مضايقات قومه التي ضيقت خناقه وجعلت متنفسه من ثقب إبرة.

***

- ما رأيكم نخرج للكعبة علّنا نجد الصابئ مذمم، فنسخر منه ونشمت به

ردد أبا جهل كلماته ثم خرج فلحق به أبو لهب وعيناه تطفح من الحبور وهو يقهقه بإثارة ملفتة

- خذني معك يا رفيق دربي وقرة عيني، لأنغّص عليه وأقلّب مواجعه بموت عمه وزوجته

واصلا سيرهما على الاقدام حتى أبصروا الكعبة الضخمة المبنية من الحجارة الغليظة والسميكة ماثلتا أمامهما، وبعد بحث دام طويلاً لم يجدا فيه منالهما عادا من حيث قدما وهما خائبين يتوعدان «لن نتركه وشأنه، سنعيد الكرة لاحقاً» قالها ثم سكتا على مضضٍ.

عاد المسلمون المهاجرين من الحبشة إلى مكة، فقد نجحت مؤامرة ومكيدة قريش في استرداد اتباع محمد، ومن حينها بدأوا يعذبونهم أشد العذاب، عذاب لا يطاق ولا يحتمله إنسان، بهدف الإحالة بينهم وبين الدين الجديد الذي اعتنقوه –دين الإسلام ـ فقد صمد من صمد

وفُتنَ من فُتن حيال ما لاقوه من أذى وضرب وشتم وإهانَة لا مثيل لها.

خرج الصادق الأمين راكضاً يتبعه مولاه زيد بن حارثه بعد أن طردتهما قبائل الطائف ورموهما بالحجارة والتراب، وما لبث صبيانهم أن رأوا كبارهم يفعلون ما يفعلون فتجهوا يركضون خلفهما ناقمين منهما مستهزئين بهما حتى أجلوهم عن الطائف بعيداً، وقَدم الصادق الأمين ومولاه تتصببان دماً من وقع الحجارة ووعثاء الأرض والطريق الشاق.

ظل الرسول مهموماً حاسر الرأس كاسف البال هائماً على وجهه لا يدري أين يذهب، مشى ومشى برفقة مولاه الذي تجشم الأذى لحمايته، ظلا يمشيان على غير هدى ومن غير وعي فقد أصابتهما نوبة من الهم والغم منقطعة النظير، رفع الرسول يده للسماء متضرعا ومتوسلا ودموعه تتسارع كأنها في مضمار سباق

- ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني

على الناس، أنت أرحم الراحمين، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني، أو إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)).

وهما يسيران ويقطعان الفيافي والفقار نزل ملَك الجبال على الرسول بأمر من الله، يعرض عليه «يا محمد لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين –جبلان ضخمان يحيطان بمكة ـ »

أجابه النبي بنبرة ملؤها الحزن والرأفة

- بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً

سُري عن الرسول قليلا بالمحادثة البسيطة التي انقضت للتو، فسكن وهدء شيء من روع قلبه واطمأن، لأنه علِم

وأيقن يقيناً تاماً أن نصر الله قريب وآتن لا محالة، ظل سائرا هو ومولاه على قدميهما الداميتين حتى عادا إلى مكة مرة أخرى، لحكمة أرادها الله.

حين ازداد أذى المشركين للمسلمين بصورة مبالغة فيها وتتابع مسلسل الإهانات على أرض مكة، قرر الرسول أن يعقد بيعة بينه وبين قبائل يثرب –المدينة المنورة ـ فوافقت الأوس والخزرج على هذه البيعة وما تنص عليه من بنود وشروط ملزمه للطرفين، فكانوا أول من نصر رسول الله لذلك عرفوا بالأنصار، وبعد أن عاهدوا أنفسهم بنشر دين الله ونصرة نبيه، أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى يثرب، فخرجوا استجابة لأمر الرسول متخفين تحت جنح الليل الحالك، والظلام الدامس يحجبهم عن أعين القوم المتربصة، تاركين خلفهم أملاكهم ومصالحهم زاهدين بأموالهم مضحين بأنفسهم، باستثناء حمزة وقليل من الرجال خرجوا جهاراً نهاراً على مرأى ومسمع قريش لفرط شجاعتهم وقوتهم، فقريش تعلم أنه لا طاقة لها بهم

خصوصاً الأسد الضاري حمزة، والباسل المغوار عمر، مما جعلها ـ أي قريش ـ تميز غيضاً وحنقاً.

***

استتب المسلمون المهاجرين بالمدينة، واستقر بهم الأمر بين إخوانهم الأنصار وتآلفت القلوب، وتوطدت أواصر ووشائج المودة والمحبة الأخوية بينهم البين في ذات الله وكأنهم جسد وبنيان واحد، وحين قدم الرسول ليثرب تلقاه أهلها بحفاوة وفرحة عارمة، فأول ما استقبلوه به عند دخوله عليهم، أنشودتهم التي أنشدوها بصوت واحد

طلع البـــدر علينـا مـــــن ثنيات الوداع
وجب الشكر علينـا مـا دعـــــا لله داع
أيها المبعـوث فينـا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبـاً يا خيـر داع

ومـا لبـث المسـلمون فـي حـالهم مـن السـكينة والأمـن والاستقرار، حتى نغصت عليهم الأخبار المزعجة، حين

هتف بها أحد المهاجرين خفية من مكة للمدينة بحنجرة مقهورة مكلومة

- يا رسول الله، إن قريش قد حجرت واستولت على جميع أملاك المهاجرين ولم تبقي لهم صافر نار، ظلما وعدوانا وهضما لهم

أخذ الرسول نفساً قبل أن يبتسم معقباً

- هذه عاجل بشرى المؤمن، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾

علّق أحد المهاجرين بعدما ثارت حفيظته، وعلامات الضجر بدت واضحة من تعابير وجهه

- يا رسول الله، أدعو عليهم!

تناول الصادق الأمين طرف الحديث منه بهدوء وثقة عالية، وأخذ يحثهم على الصبر ويعظهم ويذكرهم، وأشار

في معرض حديثه مكملاً

- «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، ثمَّ يؤتى بالمنْشارِ فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه، **والله ليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضَرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غَنَمه**، ولكنكم تستعجلون».

(أتم الله الأمر).

الحمد لله دائماً وأبداً.

تَسعدني ملاحظاتكم ونقدكم البنّاء:

Qiosm234@gmail.com

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....